القواعد الأصوليَّة في آيات سمات اليهـــود واليهوديَّـــــة

-جمعًا ودراسةً-

إعداد الفريق العلمي بقناة:
مَحابِر أُصولية.



https://t.me/mahabir

القواعد الأصوليّة في آيات سمات اليهـــود واليهوديَّـــة

السمة الأولى: **الإشراك في العبادة:**

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [سورة النساء:٥١].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: الأصنام وكل معبود دون الله، والكاهن، وفي هذه الآية يُراد به حيي بن أخطب.

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: الشيطان، وترجمة الأصنام، والساحر، وفي هذه الآية يُراد به كعب بن الأشرف.

وهاتان الكلمتان وُضعتا عَلَمين على من كان غاية في الشر والفساد والإفساد.

- **ثانيًا: في سبب نزول الآية:**

رُوي أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشًا على محاربة الرسول ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى تطمئن قلوبنا، ففعلوا ذلك -فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام-، فقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلًا أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن عبادة الأصنام وترك دين آبائه، وأوقع الفرقة، قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت؛ نسقي الحاج ونقري الضيف

ونفك العاني... وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلًا؛ فهذا هو المراد من قولهم: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[1] [2].

ونزلت هذه الآية إعلامًا من الله لرسوله بما بيَّتَه اليهود وأهل مكة.

- **ثالثًا: في لغة الآية:**

اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لام العلة، أي: يقولون لأجل الذين كفروا وليس لام تعدية فعل القول، وأريد بهم مشركو مكة وذلك اصطلاح القرآن في إطلاق صفة الكفر على الشرك وأهله.

والإشارة بقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ﴾ إلى الذين كفروا، وهو حكاية للقول بمعناه؛ لأنهم إنما قالوا: "أنتم أهدى من محمد وأصحابه"، أو قال بعض اليهود لبعضٍ في شأن أهل مكة: هؤلاء أهدى، أي: حين تناجوا وزوَّروا ما سيقولونه، ومثله قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حكاية لقولهم بالمعنى إشارةً إلى غلطهم؛ لأنهم إنما قالوا: "هؤلاء أهدى من محمد وأتباعه" وإذا كان محمد وأتباعه مؤمنين فقد لزم من قولهم: إن المشركين أهدى من المؤمنين؛ وهذا محل التعجيب.

وقد عقب التعجيب بقوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وموقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة؛ لأن من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهَد، فناسب بعد قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أن يُشار إلى هذا الفريق المدعى أنه مرئي، فيقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، وفي اسم الإشارة تنبيه إلى أن المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدم من أحوالهم.

---

[1] سورة النساء: ٥١.

[2] مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، (١٠/١٠١-١٠٢).

والصلة التي في قوله عزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، ليس معلومًا للمخاطبين اتصاف المخبر عنهم بها اتصاف من اشتهر بها، فالمقصود أن هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم.[2]

ثم اعلم أنه —تعالى- حكى عن اليهود نوعًا آخر من المكر؛ وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين، ولا شك أنهم كانوا عالمين بأن ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القول لمحض العناد والتعصب.

واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد؛ لأن الذي ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري مجرى المكابرة، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالًا ممن لا يرضى بمعبود غير الله، ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة كيف يكون أقل حالًا ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال، والله أعلم.[3]

- **رابعًا: فوائد مُستقاة من الآية:**

- من صفات اليهود: العناد والتعصُّب لباطلهم، وهذه الصفة نوع من مكرهم -لعنهم الله-.
- حكى عن اليهود نوعًا آخر من المكر؛ بتفضيلهم عبدة الأصنام على المؤمنين، ولا شك أنهم كانوا عالمين بأن ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القول لمحض العناد والتعصب.

[1] سورة النساء:٥٢.

[2] التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور، (٥/٧٦-٨٧).

[3] مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، (١٠/١٠١-١٠٢).

- **خامسًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **الاسم الموصول يُفيد العموم** ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مما يُعرف عند الأصوليين أن الاسم الموصول يُفيد العموم؛ وهو في الآية يعني كل اليهود الذين جاءهم الكتاب فلم يؤمنوا به وآمنوا بغيره، واتبعوا أهواءهم تقديمًا لها على الحق.[1]

٢. **النكرة في سياق الاستفهام تفيد العموم** ﴿نَصِيبًا﴾: نكرة في سياق ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد أفادت العموم في كل اليهود الذين أوتوا الكتاب فلم يؤمنوا به، وأغراهم الهوى عن إيمانهم.[2]

٣. **(ال) الاستغراقية تفيد العهد الذهني عند وجود القرينة** ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: جاءت (ال) الاستغراقية في الآية وهي تفيد العهد الذهني والمقصود به: (التوراة)؛ فهو كتاب اليهود الذي أنزل على موسى عليه السلام.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى ضابط العهد الذهني، والذي قال فيه التفتازاني: "والعهد الذهني موقوف على وجود قرينة البعضية، فالاستغراق هو المفهوم من الإطلاق حيث لا عهد في الخارج، والقرينة في الآية هي: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾".[3][4]

٤. **اسم الجنس المعرَّف بـ (ال) يفيد العموم** ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: اسم جنس يُراد به كل ما يعبد من دون الله؛ كالأصنام، والسحرة وغيرهم، وهو يفيد العموم، فيصبح المعنى المبني على القاعدة الأصولية: أنّ اليهود عبدوا من دون الله ما يستوجب العذاب، فدخل تحت الجبت جميع ما عبدوه، وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يفيده مطلقًا.[5]

٥. **المفرد المعرَّف بـ(ال) يفيد العموم** ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: فالطاغوت علم مفرد جاء معرفًا بـ(ال)، فأفاد العموم، وعلى اختلاف المفسرين في المراد بالطاغوت، فإن القاعدة

---

[1] المهذّب في علم أصول الفقه المقارن، لعبد الكريم النملة، (ص١٥٠٥).

[2] الفوائد السنية في شرح الألفية، لمحمد البرماوي، (ص١٣٧٢).

[3] التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، لسعد الدين التفتازاني، (ص٩٦).

[4] البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (ص١٢٠).

[5] نهاية الوصول في دراية الأصول، لصفي الدين الهندي، (ص١٣٢٣).

الأصولية تقتضي العموم في كل المعاني، فإذا أريد به الشيطان فإن المعنى: أن جميع اليهود الذين آمنوا به داخلون في حكم الآية.

٦. **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:**[1] هذه القاعدة الأصولية تظهر بجلاء في هذه الآية؛ فإنها وإن نزلت في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف عند لقائهم بقريش في مكة-كما حكى ذلك بعض المفسرين- إلا أن معناها عام في جميع اليهود، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

[1] الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي، (١٥٠٨/٤).

السمة الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة المائدة:٦٤].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾: وصف بالبخل في العطاء –تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا–؛ لأن العرب يجعلون العطاء معبَّرًا عنه باليد، ويجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم.[(١)]

- **ثانيًا: في لغة الآية وفقهها:**

مراد اليهود هنا –عليهم لعائن الله– أن الله بخيل، فأجاب –سبحانه– عليهم بقوله: غُلَّت أيديهم –دعاءً عليهم بالبخل– فيكون الجواب عليهم مطابقًا لما أرادوه بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾، ويجوز أن يُراد غل أيديهم حقيقةً؛ بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة.

ويقوِّي المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهوديًا –وإن كان ماله غايةً في الكثرة– إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضًا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. وقوله سبحانه: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ معطوف على ما قبله والباء سببيَّة، أي: أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾، ثم رد سبحانه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذِكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة؛ مبالغةً في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإنّ نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد

---

(١) التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور، (٦/٢٤٩).

الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدَّرة يقتضيها المقام، أي: كلا ليس الأمر كذلك، بل يداه مبسوطتان يُنفِق كيف يشاء، وهي جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه، أي: إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشيء آخر.(1)

قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ اللام هي لام القسم، أي: ليزيدن كثيرًا من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة، ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: طغيانًا إلى طغيانهم وكفرًا إلى كفرهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي: ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء، أو بين اليهود والنصارى.

وقول الحقّ سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: كلما جمعوا للحرب جمعًا، وأعدُّوا له عُدَّةً؛ شتَّت الله جمعهم، وذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها، ثم يبطل الله ذلك، وقيل: المراد بالنار هنا الغضب، أي: كلما أثاروا في أنفسهم غضبًا أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم، والآية مشتملة على استعارة بليغة، وأسلوب بديع، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يجتهدون في فعل ما فيه فساد، ومن أعظم ما يريدونه من إبطال الإسلام وكيد أهله، (2)

- **ثالثًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **الجمع المعرف بـ (ال) يفيد العموم ﴿ٱلْيَهُودُ﴾**: جاء اللفظ معرَّفًا بـ (ال) فأفاد العموم ودخل في الآية كل يهودي، وانطبق عليه الوصف الوارد من البخل والطغيان والبغضاء والعداوة، وهكذا اتفق الأصوليون على أن الجمع المعرف بـ (ال) يُفيد العموم، وخالف بعضهم، لكن الذي يؤكد العموم هو قول المفسرين في الآية -كما تقدَّم بيانه-.

(1) فتح القدير، للشوكاني، (٢/٦٦).
(2) فتح القدير، للشوكاني، (٢/٦٦-٦٧).

٢. **النسخ لا يدخل الأخبار:**( )( ) هذه الآية تعتبر من[1]الأخبار الواردة في حال اليهود في سوء أدبهم مع الله تعالى، والقاعدة الأصولية المقررة أن النسخ لا يدخل على الأخبار؛ لأنه يقود للتناقض ونسبة الكذب إلى الله –تعالى سبحانه عن ذلك علوًا كبيرًا–، بل النسخ يدخل على الأحكام لا على الأخبار.

٣. **مفهوم الشرط حجَّة:**( )( ) ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾: جاءت أداة الشرط ﴿كُلَّمَآ﴾؛ تفيد تكرار الفعل بتكرر الشرط، فيصبح منطوق الآية: كلما جمع اليهود للحرب جمعًا، وأعدُّوا له عُدَّة؛ شتَّت الله جمعهم، وذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة، ومفهوم الشرط: أنهم إذا لم يوقدوا حربًا ولم يعدُّوا عدَّة فلن ينالهم الجزاء.

٤. **النكرة في سياق النفي تفيد العموم:**( )( ) ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: لفظة ﴿يُحِبُّ﴾ نكرة في سياق لا النافية وهي تفيد العموم؛ فيعُمّ الوصف –وهو عدم محبة الله تعالى وبغضه– لكل مفسدٍ على وجه الأرض من اليهود وغيرهم.

---

[1] أصول السرخسي، (٢/٩٥).

[2] تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لبدر الدين الزركشي، (٢/٨٨٠).

[3] رفع الحاجب شرح مختصر ابن الحاجب، للسبكي، (٣/٣٥٣).

[4] التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، للإسنوي، (ص٢٤٥).

[5] نهاية الوصول في دراية الأصول، لصفي الدين الهندي، (٤/١٣١٩).

[6] البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (٤/١٩٤).

السمة الثالثة: تحريف كلام الله تعالى:

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء:٤٦].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: يتأوّلونه على غير تأويله.

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: غير مقبول منك، أو اسمع لا سمعت كلامًا يرضيك.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: كانت سبًّا في لغتهم، أو أجروها مجرى الهزء، أو الكبر.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: يلوون ألسنتهم بذلك، وهم يريدون الدعاء عليه بالرعونة حسب لغتهم.

- **ثانيًا: في لغة الآية وفقهها:**

قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيان لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والتحريف: الإمالة والإزالة، أي: يميلونه، ويزيلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، أو المراد: أنهم يتأوّلونه على غير تأويله، وذمّهم الله -عزَّ وجل- بذلك؛ لأنهم يفعلونه عنادًا وبغيًا، وتأثيرًا لغرض الدنيا.
قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع حال كونك غير مُسمَع، وهو يُحتمل أن يكون دعاء على النبي ﷺ، والمعنى: اسمع لا سَمِعت، ويُحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مُسمَعٍ مكروهًا، أو اسمع غير مُسمَعٍ جوابًا.
قوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: أنهم يلوونها عن الحق، أو إلى ما في قلوبهم، وأصل الليّ: القتل، وهو منتصب على المصدر، ويجوز أن يكون مفعولًا لأجله، ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ معطوف على ﴿ لَيًّۢا ﴾ أي: يَطعنون في الدين بقولهم: لو كان نبيًا لعلم أنا نسبه، فأطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لو قالوا هذا

مكان قولهم راعنا لكان خيرًا لهم مما قالوه، ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: أعدل وأولى من قولهم الأول، وهو قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾ لما في هذا من المخالفة وسوء الأدب، واحتمال الذم في راعنا، ولكن لم يسلكوا المسلك الحسن، ويأتوا بما هو خير لهم وأقوم، ولهذا: ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا إيمانًا قليلًا، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض.[١]

- **ثالثًا: فوائد مُستقاة من الآية:**

بيان جرائم اليهود؛ كتحريفهم كلام الله تعالى، وسوء أدبهم مع رسوله ﷺ، وتحاكمهم إلى غير شرعه سبحانه.[٢]

- **رابعًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **مفهوم الصفة حجَّة:**[٣][٤] ﴿هَادُواْ﴾: منطوق الآية أن اليهود الذين اتصفوا بهذا الوصف؛ من تحريف كلام الله، وسوء الأدب مع رسوله ﷺ، هم الذين ينالهم الجزاء واللعن والثبور، بخلاف غير المتصفين بهذا الوصف، فمفهوم الصفة أنّ خُلو القوم من الصفات داعٍ إلى سقوط الجزاء والعقاب.

٢. **النسخ لا يدخل الأخبار:**[٥][٦] الآية واردة في خبر ٱليَهُود الذين حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وساء أدبهم مع رسولنا الكريم ﷺ، فلا يمكن أن توجد آية ناسخة لهذه الآية؛ لأنه يعود بالتناقض في الأخبار الواردة عن الله، وهذا محالٌ حدوثه في حق الله -جلَّ في علاه-.

---

(١) فتح القدير، للشوكاني، (١/٥٤٨).

(٢) المختصر في تفسير القرآن، لمركز تفسير للدراسات القرآنية، (ص٨٦).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (٥/١٥٩).

(٤) التحبير شرح التحرير، للمرداوي، (٦/٢٩٠٤).

(٥) أصول السرخسي، (٢/٩٥).

(٦) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لبدر الدين الزركشي، (٢/٨٨٠).

٣. **العلة المنصوصة أرجح من المستنبطة:**( )( ) في الآية الكريمة جاء الحكم بلعن اليهود المذكورة صفاتهم؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾، وقد بيَّن تعالى علَّة اللعن بقوله سبحانه: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنًا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أي: غاية أفعالهم من قول: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ هي الليّ في الكلام، والطعن في الدين، وهذا من الكفر الصريح الموجب للَّعن.

ومن هنا يتبيَّن أن الليّ في الكلام، والطعن في الدين هما علتا لعن الله تعالى لهم في الآية، وبهذا يكون المثال على العلل المنصوصة.

٤. **الاستثناء من النفي إثبات:**( ) ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: نفى الله تعالى الإيمان عن اليهود، واستثنى منه قليل الإيمان المقصود به: الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض، فهذا هو الاستثناء الوارد بعد النفي، فهو إثبات قليل الإيمان بعد نفيه بالكلية، والقاعدة المقررة أن الاستثناء من النفي –والذي هو نفي الإيمان في الآية– إثباتٌ؛ فبسببه ثبت لهم بعض الإيمان على الوجه الآنف ذِكره.

٥. **المجمل يُحمل على المبيَّن:**( )( ) جاء إثبات بعض الإيمان في الآية مجملًا؛ إذ قال تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فما هو نوع الإيمان الذي أثبته الله تعالى لليهود؟ جاء البيان والتوضيح في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾( )، فتجلّى المعنى المراد من إثبات قليل الإيمان، وهو: إيمان اليهود ببعض الرسل وكفرهم ببعض.

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (٧/٣٣١).

(٢) نثر الورود، للشنقيطي، (٢/٥٠٩).

(٣) العقد المنظوم في الخصوص والعموم، للقرافي، (٢/٢٢٤).

(٤) شرح الكوكب المنير= مختصر التحرير، لابن النجار، (٣/٤٣٧).

(٥) شرح مختصر الروضة، للطوفي، (٢/٦٧١).

(٦) سورة النساء:١٥٠.

٦. **التخصيص بأداة الاستثناء:**[1] ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]: جاء النفي عامًّا في الآية وذلك بنفي الإيمان عن اليهود الواردة صفاتهم، ثم أُستثني من ذلك بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ -وهي من المخصصات المنفصلة-؛ فأثبت بعض الإيمان لهم على الصورة التي ذكرناها آنفًا.

---

(١) نهاية السول شرح منهاج الوصول، للإسنوي، (ص٦٧١).

(٢) التحبير شرح التحرير، للمرداوي، (٦/٢٥٢٥).

السمة الرابعة: كتمان الحق:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [سورة آل عمران: ٧١].

أولًا: معاني الكلمات:

﴿تَلۡبِسُونَ﴾: تخلطون.

- **ثانيًا: فقه الآية:**

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما[(١)]، ولَبس الحق بالباطل: تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه.

وكتمان الحق يُحتمل أن يُراد به كتمانهم تصديق محمد ﷺ، ويُحتمل أن يُراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوَّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها.[(٢)]

- **ثالثًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **المفرد المعرّف بـ (ال) يُفيد العموم:**[(٣)] ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: لفظ مفْرد جاء معرفًا بـ (ال)؛ فأفاد العموم في كل الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام -وهو التوراة-، أو على عيسى عليه السلام -وهو الإنجيل-.

---

(١) تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/٢٣).

(٢) التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور، (٣/٢٧٩).

(٣) الردود والنقود، للبابرتي، (٢/١٠٥).

٢. **النكرة في سياق الاستفهام الإنكاري تُفيد العموم:**[1] ﴿تَلۡبِسُونَ﴾: نكرة في سياق ﴿لِمَ﴾ الاستفهامية؛ فأفادت العموم في كل من ألبس الحق بالباطل من اليهود والنصارى.

٣. **مفهوم الصفة حجَّة:**[2][3] ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: كلاهما وصفان قائمان في الآية؛ فيُصبح المنطوق: أنّ كل من ألبَسَ الحق وأبدله بالباطل داخلٌ في حكم الآية، والمفهوم: أن من لم يدخل في إلباس الحق بالباطل فخارجٌ عنها.

---

(١) الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، لأبي المنذر المنياوي، (ص٢٣٨).

(٢) شرح الكوكب المنير= مختصر التحرير، لابن النجار، (٣/٥٠٠).

(٣) التحبير شرح التحرير، للمرداوي، (٦/٢٩٠٦).

السمة الخامسة: **تكذيب الرسل:**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة البقرة:٨٧].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبعنا، التقفية: الإتباع.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الحجج، أو الإنجيل، أو إحياء الموتى، وخلق الطير، وإبراء الأسقام.

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: الاسم الذي كان يُحيي به الموتى، أو جبريل عليه السلام –على الأظهر– سُميّ به.

- **ثانيًا: في لغة الآية وفقهها:**

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: أرسلنا على أثره الرسل، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات؛ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قيل: روح عيسى عليه السلام، ووصفها به؛ لطهارته عن مسّ الشيطان، أو لكرامته على الله –سبحانه وتعالى– ولذلك أضافه إلى نفسه –تعالى–، أو لأنه لم تضمّه الأصلاب والأرحام الطوامث، أو الإنجيل، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى[1]، ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبه، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ الفاء للسببيّة أو للتفصيل ، أي: كتكذيبكم لموسى وعيسى –عليهما السلام–، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: كقتلكم لزكريا ويحيى –عليهما السلام–.

[1] تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (١/٩٢–٩٣).

وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارًا لها في النفوس –فإن الأمر فظيع–، أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه؛ إذ تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمَّمتم له الشاة.

- **ثالثًا: فوائد مُستقاة من الآية:**

التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عامٌّ في كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين أو أهل الكتاب.[1]

- **رابعًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **الجمع المعرف بـ (ال) يفيد العموم:**[2][3] ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾: جاء الجمْع في لفظ الرسل معرفًا بـ (ال)؛ فأفاد العموم في كل رسولٍ بعثه الله –تعالى– بالنذارة إلى الخلق.
﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جاء الجمع في لفظ البيِّنات معرفًا بـ (ال)؛ فأفاد العموم في كل بيِّنةٍ أوجدها الله –تعالى– على يد عيسى ابن مريم –عليهما السلام– وبذلك دخل في سياق الآية.

[1] الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، لابن تيمية، (٢/١٨٥).
[2] شرح المعالم في أصول الفقه، لابن التلمساني، (ص٤٣٩).
[3] رفع النقاب عن تنقيح الشهاب، لأبي عبد الله الشوشاوي، (ص١٥٢).

السمة السادسة: قتل الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة البقرة:٩١].

أولًا: في لغة الآية وفقهها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يعُمّ الكتب المنزلة بأسرها، ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: بالتوراة، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ حال من الضمير في ﴿قَالُوا۟﴾، و﴿وَرَآءَهُۥ﴾ في الأصل جُعِل ظرفًا، ويُضاف إلى الفاعل؛ فيُراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول؛ فيُراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عُدّ من الأضداد، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه –والمراد به القرآن–، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم؛ فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها، ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادّعاء الإيمان بالتوراة، وإن كانت التوراة لا تسوّغه، وإنما أسنده إليهم؛ لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه.[١]

- **ثانيًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **صيغة الأمر (افعل) على وجه الاستعلاء، والأمر المجرَّد يقتضي الوجوب:**( )( ) ٣ ٢

﴿ءَامِنُوا۟﴾: جاء الأمر الرباني بالإيمان في فعل الأمر ﴿ءَامِنُوا۟﴾ على وجه الاستعلاء، وهو يقتضي الوجوب على تقرير القاعدة الأصولية السابقة؛ فأفاد وجوب الإيمان بما أنزل الله –تعالى– على عباده من الكتب السماوية.

---

(١) تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٩٤/١).

(٢) شرح مختصر الروضة، للطوفي (٣٦٥/٢).

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي، (٦٧/٢).

﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ﴾: جاء الأمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بصيغة افعل في قوله: ﴿قُلۡ﴾ ومن القواعد الأصولية أن الأمر المجرد يقتضي الوجوب، فهنا أوجب الله تعالى على رسوله ﷺ أن يخاطبهم بهذا الجواب في قوله: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾.

٢. **مفهوم الصفة حجَّة:**[1][2] ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: لفظٌ يراد به وصف القرآن العظيم كتاب الله بأنه صريحٌ في قوله، واضحٌ في بيانه، مثبِتٌ لوجوب الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ؛ فمنطوق الآية أن القرآن حق، ومفهوم الصفة أن ما عدا القرآن باطلٌ لا اعتبار به.

---

[1] البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (١٥٩/٥).

[2] التحبير شرح التحرير، للمرداوي، (٢٩٠٤/٦).

السمة السابعة: قسوة القلب:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المائدة:١٣].

- **أولًا: في لغة الآية وفقهها:**

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي: طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾ لا تتأثر بالآيات والنذر.

وقرأ حمزة والكسائي (قسية) وهي إما مبالغة قاسية، أو بمعنى رديئة من قولهم: "درهم قسي: إذا كان مغشوشًا"، وهو أيضًا من القسوة؛ فإنّ المغشوش فيه يبس وصلابة، وقُرِئ (قسية) بإتباع القاف للسين.

وقوله -جلَّ وعزّ-: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله -سبحانه وتعالى- والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالًا من مفعول﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه، ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا ﴾ وتركوا نصيبًا وافيًا، ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى: أنهم حرَّفوا التوراة، وتركوا حظهم مما أنزل عليهم؛ فلم ينالوه، وقيل معناه: أنهم حرَّفوها فزلت بشؤمه أشياء منها عن حفظهم؛ لما رُوي أن ابن مسعود قال: "قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية"،[1] ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: خيانة منهم، أو فرقة خائنة أو خائن والتاء للمبالغة؛ والمعنى: أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾ أي: لم يخونوا، وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله:

[1] التحبير شرح التحرير، للمرداوي (١١٩/٢).

﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾، وقوله –تبارك وتعالى-: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ أي: إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية، وقيل: مطلق نسخ بآية السيف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: تعليل للأمر بالصفح، وحثٌّ عليه، وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلًا عن العفو عن غيره. [1]

- **ثانيًا: فوائد مُستقاة من الآية:**

– اليهود قلوبهم قاسية، لا تُجدي فيها المواعظ والنذر.

– مَن يُهوّن خطر اليهود فهو محتاج إلى تدبر القرآن. [2]

- **ثالثًا: القواعد الأصولية في الآية:**

صيغة الأمر (افعل)، والأمر المطلق يقتضي الوجوب:()() ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾: جاء الأمر من الله –تعالى- بالعفو والصفح عند توبتهم وإيمانهم، أو أخذهم بالعهد ودفع الجزية، وهذا الأمر يقتضي الوجوب لأنه أمرٌ مطلقٌ مجرَّدٌ عن القرائن الصارفة له.

الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي:()() ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾: فهنا حكم الله –تعالى- عليهم بالخيانة، ثم استثنى منهم فئة قليلة وهي التي آمنت؛ وبذلك يكون الاستثناء من الإثبات –إثبات الخيانة في حق السواد الأعظم من اليهود- نفيٌ للخيانة عن القلة من مؤمنيهم.

العلة المنصوصة أرجح من المستنبطة: بيَّن الله تعالى غاية وعلَّة الأمر بالعفو والصفح عن الكافر الخائن، ونصَّ عليها بقوله –سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قال الإمام

---

(١) تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/١١٩).

(٢) القرآن تدبُّر وعمل، لمركز المنهاج، (٦/٨).

(٣) شرح مختصر الروضة، للطوفي، (٢/٣٦٥).

(٤) الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي، (٢/٦٧).

(٥) العقد المنظوم في الخصوص والعموم، للقرافي، (٢/٢٢٤).

(٦) التحبير شرح التحرير، للمرداوي، (٦/٢٦٠٦) .

البيضاوي –رحمه الله-: "﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحثٌّ عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسانٌ فضلًا عن العفو عن غيره".[1]

[1] تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/١١٩).

السمة الثامنة: الغدر ونقض المواثيق:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة النساء:١٥٥].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿غُلْفٌۢ﴾: أوعية للعلم، ومع ذلك فلا تفهم حجتك ولا إعجازك، أو محجوبةٌ عن فهم دلائل صدقك؛ كالمحجوب في غلافه.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾: ذمَّهم بأن قلوبهم كالمطبوع عليها فلا تفهم أبدًا، أو جعل عليها علامة تدل الملائكة على كفرهم كعلامة المطبوع.

- **ثانيًا: في لغة الآية وفقهها:**

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ خالفوا ونقضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ مزيدة للتأكيد، والباء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بـ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾[(١)] فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ لا بما دل عليه قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مثل لا يؤمنون؛ لأنه رد لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، فيكون من صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جاره، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن أو بما جاء في كتابهم، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنَّة مما تدعونا إليه[(٢)]،﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلها ومنعها التوفيق

(١) سورة النساء: ١٦٠.

(٢) تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/١٠٧).

للتدبُّر في الآيات والتذكر في المواعظ؛ ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إلا قليلًا منهم كعبد الله بن سلام، أو إيمانًا قليلًا؛ إذ لا عبرة به لنقصانه.[1]

- **ثالثًا: القواعد الأصولية في الآية:**

العلة المنصوصة أرجح من المستنبطة: ( )( ) جاءت الآية تعليلًا[2] للعذاب[3] الواقع على اليهود بسبب غدرهم ونقضهم المواثيقكما يظهر جلياً في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾[4]، فهذا يُعد عند الأصوليين من العلل المنصوص عليها، وهي أرجح من العلة المستنبطة.

---

[1] تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/١٠٧).

[2] البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، (٧/٣٣١).

[3] نثر الورود، للشنقيطي، (٢/٥٠٩).

[4] سورة النساء: ١٥٤.

السمة التاسعة: النفاق والكذب:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾ [سورة المائدة: ٦١].

- **أولًا: في سبب نزول الآية:**

نزلت هذه الآية في ناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول ﷺ ويُظهِرون له الإيمان نفاقًا، فأخبره الله -عز وجل- بشأنهم وأنهم يَخرجون من مجلسك كما دخلوا، لم يتعلَّق بقلبهم شيء من دلائلك وتقريراتك ونصائحك وتذكيراتك.

- **ثانيًا: في لغة الآية وفقهها:**

الباء في قوله تعالى: ﴿دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ يُفيد بقاء الكفر معهم حالتي الدخول والخروج من غير نقصان، ولا تغيير فيه البتَّة؛ كما تقول: دخل زيد بثوبه وخرج به، أي: بقيَ ثوبه حال الخروج كما كان حال الدخول.

ذكر عند الدخول كلمة (قد)، فقال سبحانه: ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ﴾، وذكر عند الخروج كلمة (هُمْ)، فقال جلَّ وعزّ: ﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾، قالوا: الفائدة في ذكر كلمة (قد) تقريب الماضي من الحال، والفائدة في ذكر كلمة (هُمْ) التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون من النبي ﷺ في ذلك فعل، أي: لم يسمعوا منك يا محمد عند جلوسهم معك ما يُوجِب كفرًا، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم، ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ والغرض منه المبالغة فيما في قلوبهم من الجد والاجتهاد في المكر بالمسلمين، والكيد بهم، والبُغض والعداوة لهم.[١]

---

(١) مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، (١٢/٣٩٢).

- **ثانيًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **مفهوم الشرط حجّة**[1] ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ﴾: أداة الشرط (إذا) تفيد تحقق المشروط بتحقق الشرط؛ أي: إذا جاؤوكم ودخلوا عليكم، فيتحقق المشروط حينها، وهو قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، ومفهوم المخالفة: أنهم إن لم يأتوا إليكم فلن يتفوَّهوا بكلمة الإيمان، فهذا هو مفهوم باعتباره أحد أنواع مفهوم المخالفة.

٢. **النسخ لا يدخل الأخبار:**[2][3] هذه الآية تعتبر من الأخبار الواردة عن اليهود في الغدر ونقض المواثيق، والقاعدة الأصولية المقررة أن النسخ لا يدخل على الأخبار؛ لأنه يقود للتناقض ونسبة الكذب إلى الله -تعالى سبحانه علوًا كبيراً-، بل النسخ يدخل على الأحكام لا على الأخبار.

٣. **الجمع المضاف إلى معرفة يُفيد العموم**[4] ﴿جَآءُوكُمۡ﴾: لفظ الجمعْ (جاؤوا) التصق بمعرفة وهو ضمير المخاطب (كم) فأفاد العموم.

---

(١) الفائق في أصول الفقه، لصفي الدين الهندي، (٢/٢٨).

(٢) أصول السرخسي، (٢/٩٥).

(٣) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لبدر الدين الزركشي، (٢/٨٨٠).

(٤) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، لعياض السلمي، (ص٣٠١).

السمة العاشرة: كراهية المسلمين:

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢﴾ [سورة المائدة:٨٢].

- **أولًا: معاني الكلمات:**

﴿قِسِّيسِينَ﴾: اسم لرئيس النصارى.

- **ثانيًا: فقه الآية:**

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ لشدة شَكِيمَتِهِم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبُعدهم عن التحقيق، وتمرّنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ للين جانبهم، ورقة قلوبهم، وقلة حرصهم على الدنيا، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل؛ وإلى ذلك أشار بقوله –سبحانه-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا يستكبرون عن قبول الحق إذا فَهِموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر.[1]

- **ثالثًا: فوائد مُستقاة من الآية:**

وهاهنا دقيقة نافعة وهي أن كفر النصارى أغلظ من كفر اليهود؛ لأن النصارى يُنازعون في الإلهيات وفي النبوات، واليهود لا ينازعون إلا في النبوات، ولا شك في أن الأول أغلظ، ومع ذلك فإن النصارى مع غلظ كفرهم لما لم يشتد حرصهم على طلب الدنيا بل كان في قلبهم

---

[1] تفسير البيضاوي=أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢/١٤٠).

شيء من الميل إلى الآخرة؛ شرّفهم الله بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾، وأما اليهود مع أن كفرهم أخفّ في جنب كفر النصارى، طردهم الله وخصّهم بمزيد اللعن، وما ذاك إلا بسبب حرصهم على الدنيا؛ كما قال ﷺ: (حُبّ الدنيا رأس كل خطيئة).[1]

- **رابعًا: القواعد الأصولية في الآية:**

١. **الجمع المعرف بـ (ال) يُفيد العموم**[2][3] ﴿ٱلنَّاسِ﴾: جاء اللّفظ ملحقًا بـ (ال) التعريف فأفاد العموم؛ فتناول الوصف في الآية جميع الناس صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، باختلاف أجناسهم، فلا تجد في هذا الخلق الذي تعاظم كثرةً من يكون أشد عداوة للمسلمين من اليهود والذين أشركوا.

﴿ٱلْيَهُودَ﴾: فشمل بذلك الخطاب جميع اليهود ممن آمن بالتوراة وموسى عليه السلام، في كل زمان ومكان.

---

(١) مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، (١٢/٤١٤).

(٢) شرح المعالم في أصول الفقه، لابن التلمساني، (ص٤٣٩).

(٣) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب، لأبي عبد الله الشوشاي، (ص١٥٢).